

.. مانفتو المقاومة

مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح ، وكثرة الأطروحات التي تناقش حالة التخلف والانحطاط العربي والإسلامي ، فإن من الضروري علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التي تعاني منها أمتنا .

إذا كان من الضروري بداية لوضع تصور صحيح للإقلاع والإصلاح أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصدد تحديد أمراضها ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها ، وكذا طبيعة التحدي والأمراض التي تواجهها تلك الجماعة البشرية ، أي الانطلاق من نقطة مبدئية وهي أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصممة ليس لها سمات ولا خصائص وكذلك أننا لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقوانين وسنن الفيزياء والكيمياء . . . الخ ، لكان علينا في البداية تحديد من هي هذه الجماعة البشرية التي نحن بصدددها ، ويدون الدخول في تفصيلات كثيرة فنحن أمام جماعة بشرية - العالم العربي والإسلامي - لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية ومن ثم فإن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل بل وتكريس الحالة التي نريد علاجها ، هذه الأمة إذن أمة إسلامية شئنا أم أبينا ، وبالتالي فإن المكون الرئيسي

والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة هو الإسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين (الأغلبية الساحقة) وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة، وهكذا فإن شرط النجاح الأول لأي مشروع هو إسلاميته ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً بلا استثناء بالنسبة لكل الجماعات البشرية (١٤ قرناً على الأقل واتساع جغرافي وامتداد زمني وثقافي وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين أي مراقب) وهكذا فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية - بوعي أو بدون وعي - كرهاً أو رغماً هو قفزة فاشلة في المجهول والفرغ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا، إنها محاولة محكوم عليها بالفشل ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد ومسح ذلك الكيان جزئياً ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفاء للتحديات والأمراض، وهذا بالتحديد هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي (العلماني الليبرالي، العلماني القومي، العلماني الاشتراكي بكل درجاته) والنتيجة هي ما نشاهده الآن من نتائج تلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل، بل بنتيجة عكس المطلوب تماماً، الإسلامية إذن هي الشرط الأولي لأي مشروع للإصلاح، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان وإذا قلنا أن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضاري لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً، فإن هذا يقود إلى الإيمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية، وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع وقلنا إن المنحنى الإسلامي صمد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم، ثم ثبت هذا المنحنى، ثم نزل وأنا الآن في حالة نزول حضاري - هزيمة تكنولوجية واضحة - يجب الاعتراف بها أولاً، ثم العمل على تجاوزها ثانياً، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى وقبل ذلك سبب صعوده، لكان من الممكن تلخيص المسألة في كلمة واحدة، هي كلمة الجهاد، فظالما قامت هذه الأمة بالجهاد، كواجب شرعي وفعل حضاري لإنقاذ المستضعفين في العالم كلما صعّد المنحنى الحضاري لأمتنا وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة أو اكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى ثم ثبت ثم نزل، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل، وفي الحقيقة فإن كثيراً من الأطروحات - بعضها إسلامي طبعاً - حين

تجاهل هذا البعد ، وتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصادية ، الإصلاح السياسي - التربية ... الخ ، فإنها تكرر التحلف ، لن نحقق الوحدة مثلاً ، ولا الإصلاح الاقتصادي ، ولا الإصلاح السياسي إلا إذا جاهدنا « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا « وهكذا فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة ، الجهاد هو شرط التقدم الاقتصادي والاجتماعي وشرط التنمية الحقيقية وشرط كل شيء صحيح وجميل ، فإذا أردنا أن نحقق زراعة أو صناعة أو تعليم أو تربية أو حتى تفوق فني وأدبي فإن الجهاد هو الشرط الأول ، وهذا المعنى الصحيح للآية المذكورة سابقاً ، وللحديث الشريف كذلك . يجب بالطبع إدراك بعد الهزيمة التكنولوجية ، والاعتراف بها ويجب أن ندرك أن علينا في البداية أن نقتل سرعة نزول المنحنى الحضاري لأمتنا ، وأن نوقف هذا النزول تماماً ، ثم نحدث انقلاباً في المنحنى ثم نصعد من جديد إن شاء الله ، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز في الهواء وهذا لعمرى كان خطأ الحركات السياسية الإصلاحية عموماً والإسلامية منها خصوصاً حتى الآن ، يجب تقديم اجتهاد فكري وحركي وفقهي يلائم هذا الظرف ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد .

سندخل مباشرة في بعض الأطروحات المراوغة ، التي تقول إحداها مثلاً إننا أمة متخلفة ومهزومة (وهذا صحيح) وإن المواجهة ليست حلاً (وهذا غير صحيح) ، ومن ثم فعلينا إتباع الأسلوب الألماني أو الياباني في الإصلاح ، أي ترك موضوع المواجهة والجهاد نهائياً والتفرغ للبناء والإنتاج في محاولة لسد الفجوة التكنولوجية ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وهذا طرح خاطئ لعدة أسباب ، فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية ولا ثقافية بل عسكرية وسياسية ، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة إلى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية فإنها أيضاً حضارية وثقافية ، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعماري اقتصادي وسياسي ، بل إزاء مشروع حضاري يستهدف القضاء على أمتنا ، وهناك وجدان صليبي يحرك الأعداء ضدنا ، والمواجهة مع الغرب الصليبي لم تنقطع قط في الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول ﷺ وحتى اليوم ، مروراً بالمواجهة في الأندلس

والمغرب العربي (حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون المغاربة) ومروراً بحروب الفرنجة على المشرق العربي الإسلامي ١٠٩٥ م - ١٢٩٥ م وكذا مروراً بالواجهات التي خاضتها الدولة العثمانية ، ثم الاستعمار والصهيونية وحتى احتلال أفغانستان والعراق ، فالمسألة هنا أننا أمام عدولن يقبل بغير الاجتثاث لأمتنا، ولن يتركنا نبي ونعمر فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الإسلامي أو حتى العلماني أو على أي أساس ، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة، وبالتالي فالقياس الألماني والياباني قياس مخادع وخاطئ ، بالإضافة إلى أن أمريكا والغرب كان لهم مصلحة في تقدم ألمانيا الغربية في إطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية ، وكذا في تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفيتي أو الصين بالتمدد في آسيا وموضوع القياس الياباني والألماني خطأ مبدئي بالنظر لظروف وطبيعة الصراع مع الغرب ، وهو أكبر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بهامش من المناورة يمكن أن نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا وهكذا فإن القياس الألماني والياباني يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة .

من الأطروحات الأخرى المراوغة ، أننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومي الأمريكي مثلاً ١٣ تريليون دولار ، أما الدخل العربي والإسلامي السنوي فهو قليل جداً - العربي ٧١٧ مليون دولار - ، أي أصغر من رأسمال شركة مايكروسوفت مثلاً أو نوكيا للهواتف المحمولة أو دولة واحدة مثل إسبانيا ، وهذا صحيح ، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا في اعتباره وليس طامعاً فينا أو لا يشكل له أي نوع من التهديد، ولعل حجة هؤلاء هي نفسها تنسف منطقتهم ، فمادنا بلا قيمة ولا تشكل خطراً فلماذا تم زرع إسرائيل ، ولماذا تم احتلال أفغانستان ثم العراق ؟ . هل لتدفق البترول مثلاً ؟ . وهذا البترول مهم طبعاً ، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم ، بل إن أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً ، إنهم يأخذون البترول وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول ، إذن فالمسألة لها بعدها الحضاري والثقافي والتاريخي بالإضافة إلى بعدها الاقتصادي والسياسي أما مسألة أننا لا تشكل خطراً عليهم ، فهذا كلام

جزئي ، نعم ربما لا تشكل خطراً حقيقياً أو كبيراً الآن ولكن هناك ما يسمى بالقوة الكامنة ، والمنظومة الإسلامية الثقافية تمثل خطراً شديداً على المنظومة الغربية الرأسمالية لأنها تشكل البديل الأيديولوجي لكل مستضعفي العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي ، وبديهي أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي كانا لا بد أن يفشلا أمام الرأسمالية لأنه من الناحية العلمية والموضوعية فإن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد خرجا من نفس الأرضية الحضارية التي أفرزت الرأسمالية ومن الطبيعي أن هذا سبب جوهري وبنوي للفشل ، أما الإسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً ليست تابعة من المنظومة الحضارية الغربية وهي ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء ثانياً وبالتالي قادرة على تقديم التبرير النظري للثورة على الرأسمالية ، وهي ذات خطاب عالمي ثالثاً وبالتالي فهي يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافي للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية (وهم أكثرية العالم) سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، ثم إن الخطاب الإسلامي خطاب غير عنصري ، أضف إلى ذلك أن الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التي يشغلها العالم الإسلامي وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة ، ثم ثقافة القتال والجهاد ، والاعتماد على مدد الله يمكن أن تشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين ، وهكذا فإن خوف الغرب وأمريكا من الإسلام والمسلمين له أسبابه القوية والخطيرة أيضاً ، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر العربي والإسلامي ليس وهماً ولا خداعاً ، بل إدراك مبكر أو تقليدي لما يمكن أن يمثله الإسلام والمسلمون إذا ما سادت ثقافة المواجهة والمقاومة وتم استعادة فعل الجهاد الجميل .

لماذا نقول مشروع المقاومة ، ولا نقول مثلاً مشروع الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التربية أو غيرها ؟ ! . . ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد ، وذلك لأننا أمة مستهدفة ، والسيف فوق رؤوسنا ، فهل نخدع أنفسنا مثلاً ؟ . . وقد بان الأمر الآن ، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم والانطباق الكامل بين إسرائيل وأمريكا أصبح واضحاً للعيان لا تخطئه عين وخاصة بعد ما

يسمى (بوعد بوش) الصادر مع شارون في مؤتمر صحفي ١٤ / ٤ / ٢٠٠٣، وهو مفهوم من قبل ولكن ذلك لمن يريد حجة دامغة بدون جهد!! ..

وكذلك لأن الله تعالى وضع لنا الحل الصحيح في القرآن الكريم: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَشْخَذُوا يَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَفَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَفُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِيعٌ ﴿٥٢﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

وهذه الآيات تنطبق على حالتنا الراهنة تماماً، حيث أنه لم يحدث تحالف - فضلاً عن موالاة - بين اليهود والنصارى إلا في السنوات الأخيرة، بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء، المهم أن هناك الآن موالاة والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل وهناك احتلال أمريكي لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة ولا القتال ولا الجهاد ولا الاستشهاد يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أي نخاف منهم لأنهم أقوى منا بمراحل نعم هذا صحيح ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان، وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له علاجاً، ولن يجدوا إن شاء الله - حتى الآن - وحتى بصرف النظر عن النتائج فإن الله تعالى طلب منا ذلك وفضح منطق المسارعين فيهم، وبشرنا بأن الفتح أو أمر من عنده سوف يأتينا، ونحن بالتالي نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية، وكتوجيه قرآني، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبت نجاحه، فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه رغم كل الظروف الصعبة وغير المواتية نجحت في تعطيل المشروع الأمريكي، وفي سبيلها لإنهائه إن شاء الله، نفس الأمر بالنسبة لمشروع المقاومة في فلسطين الذي جاء أيضاً في ظروف غير مواتية، ومع ذلك هز الوجود الإسرائيلي هزاً، وألقى بظلال من الشك حول المشروع الصهيوني ذاته كما اعترف بذلك قادة العدو وكبار مفكريه والأمر ذاته بالنسبة للمقاومة في لبنان.

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح وإذا أدركنا أننا في حالة هزيمة تكنولوجية وأنه من المستحيل عملياً مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيش أو الدول أو المؤسسات الرسمية «وكل التجارب دلت على ذلك» فإن التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها، وهي سوف تحقق أولاً نوع من التصدي والصمود يمنع وصول المنحنى الحضاري الإسلامي إلى نقطة السقوط النهائية، والمقاومة سوف تزيد وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط بها، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضة في الجسد العربي والإسلامي، وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية، ولا شك أن ذلك سوف يزيد قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية، ومن هنا فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجزهرية للإصلاح السياسي، وعلى نفس النمط هو المقدمة الأولى والصحيحة للتقدم الاقتصادي وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية، بل سوف تفجر طاقة الابتكار العلمي والتكنولوجي أيضاً، وهكذا فإن مشروع المقاومة وإشاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعياً وواقعياً، وفي أسوأ الحالات فإن التخلي عن الجهاد والمقاومة يعني الإبادة والقتل والتدمير والنهية الحضارية وتحولنا إلى عبيد أو قتل الجزء الأكبر منا وتحويل الباقي إلى عبيد أما المقاومة فهي إما نصر وإما شهادة، وحتى لو كانت النتيجة هي الهزيمة فإن خسائر الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبساط، وعلى الأقل هناك الكرامة، وهناك التجربة التي يمكن تكرارها مع الأجيال القادمة، أي المحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد.

ولن نكون مغرقين في الوهم أو التفاؤل حين نقول أن مشروع المقاومة لن يحقق فقط العزة والكرامة لنا، بل سيكون بداية لتحرير العالم كله من الهيمنة والظلم الأمريكي الصهيوني، وهذا سوف يرفع قيمة أطروحتنا الثقافية عالمياً، بل يمكن أن يتحول الإسلام إلى أيديولوجية لكل المستضعفين والمناهضين للرأسمالية والعولمة، وحتى بمنطق الدعوة المباشر فإن المواجهة والمقاومة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس في دين الله أفواجاً.